

خشب ونحاس

سمية رمضان

دار شرقيات للنشر والتوزيع


خشب ونحاس

الطبعة الأولى ، ١٩٩٥

٥ شارع محمد صدقى ، من شارع هدى شعراوى
باب اللوق ، القاهرة
س : ت ٢٦٩١٩٨ ت ٣٩٠٢٩١٣

تصميم الغلاف : **محيى الدين اللباد**

الرحيل

في قرية عمال بناء المقابر حيث مغرب الشمس. امرأة حلت بعد رحيل دإم عمرها، بعد أن جابت الدنيا غريبة. يئست. رجعت أرض مصر. تزهق روح حلمها القديم كل يوم، بين رحى مشاغل كل يوم. تنفث فيه تراب صَحن الدار وتغرقه في ماء غسيل كتانها المتسخ، وتلكم به رقاب الأوزة بفتات خبز مبلل، وآخر النهار ترمي جسدها فوق سرير الجريد ناحيةِ الطاقة الشرقية بعيداً عن ومضات نجوم ليل مصر وفي منأى مما يسكب قمرها. قلبها ثقيل برجاء مبهم أن يطول الليل ويطول ولكن شمس آتون توقظها كل يوم.

منذ عام وفدت القرية عرافة أخميم. لم تذهب هي لها.
جاءت العرافة إلى بابها ونقرت مرات عديدة حتى فتحت. ودخلت العرافة وجلست على سرير الجريد قرب الطاقة ولم تفتح فماً، ولكن غرفة المرأة الصغيرة ارتجت بصوت شوق قديم رقّ له كيانها حتى تكوّن على مقلتيها لوح دمع لم ينسكب، تقف ضد تيار انجياشه، في حلقها غصة اللافائدة، وذهنها المتعب لمجرد استرجا ع لحظة الشوق ووهن يصيب كيانها كلما تذكرت سنوات الرحيل.

لكن العرافة تغاضت عن كل أعراض التنكر، وبعثت لها بنظرة لامعة استنفرت فيها كل ما كان من شبق البحث وأومأت لها ناحية آتون، ناحية الشرق.

وباتت ليلتها مؤرقة تلح عليها الفكرة القديمة: «موجود إذن. ليس سرابا.. في مكان ما. لو اتبعت شروق الشمس تصل. تلقى حتماً ما يجعلها كاملة الكيان في سكينة تتنفسها من مسامها. تعيش الأزل كل ومضة عين. تكون حرية من لاحلم له، لو ذهبت

ناحية آتون تجده هناك. ذهبت.

في معبد آتون قبل عام، كاهن شابَ شَعْرُه ليلة رأى في منامه امرأةً ممن يسكنَّ قرية عمال البناء عند سفح هرم الملك العظيم. رآها تزهق روح طفل، طفله هو، كانت تسفّه التراب، كنسته بماء غسيل كتانها المتسخ ولّما لم يمت تمسكه من رقبته وتحشو زوره بفتات الخبز المبلل. قام مرتعشاً من نومه يتوضأ في ماء البحيرة المقدسة وقصد قدس أقداس المعبد يطلق البخور ويتمتم الصلوات ويدعو ربه ويتضرع بسرعة، بلهفة من يستشعر خطراً داهماً لايدري له مفر. ظلّ يصلّي حتى هدأت روحه فأغمض عينيه يستمسك بسكونها. تواتر في همهمات وومضات فريدة عبر كهف ذاكرة السنين، رجع أصداء ليوم حلق رأسه واستحم في البحيرة المقدسة كاهناً لاتون أول مرة وجاءت عرافة أخميم تنبئه:

– سوف تسعى وتظن التوحد وآتون كمالك قبل الممات ولكنّ يوماً يجيء يشيب له شعرك لهول ما سيتبدى لك من خطئك وحسرة على ما أضعت في الخطأ.

وَهَمَّ بالرحيل. لو وجد امرأة قرية البنائين وأثناها عن أفعالها فاز لحياته بالمعنى والحلم ولإغترف من أمل من يبدلون الأحوال. لو وجد امرأة قرية البنائين واثناها أصبح هو المنافق من الصدّيقين، ورحل.

عند مفترق الطرق تلاقيا كاهن آتون الأشيب وامرأة قرية البنائين الحالمة وتبادلا التحية اللائقة.

ومضى هو غرباً.. ومضت هي شرقا.

الثمن



رأيتني في الجب ثم خارجه يقتادني حارسي صوب فتاة ذات عينين نافذتين. قالت في حياد من أوكلت له مهمة سخيفة عندما أوقفني الحارس لديها: من هنا. وتبعتها في خطوات قصيرة وأغلال قدمي تحك كاحلي، ويداي خلف ظهري مسلسلة. أمرتني بالتوقف في صلف وفتحت باباً صغيراً وأشارت لي بالدخول وانصرفت.

وجدتني في منتصف غرفة كبيرة رصت بملفات القضايا، تحوِّط جدرانها تماثيل بكل الأحجام من كل العصور، ووراء مكتب كبير جلس شاب له شعر كثيف يقرأ. أغلق السفر بين يديه وأشار لي بالاقتراب، وعندما اقتربت وقف فظهر طويلاً ثم استدار حول المكتب حتى صار مواجهاً ليء، واخرج من جيب سترته مفتاحاً صغيراً وبدأ يفك أغلالي ثم مد يده ومسح على شعرى متمتماً باعتذار غريب في اشفاق، ورفع يده مشيراً إلى شباك طويل يفضي إلى درب ملتوٍ في حديقة بديعة وقال: «هذا الدرب.. هو طريقكِ.. اذهبي».

رفعت رأسي وقلبي يدق بشده أسأله: لا أريد الذهاب. أخاف. الطريق لم أره من قبل. لا أعلم أين يؤدي. أريد البقاء هنا».

لمّا قرأ عينيَّ قال: في السجن؟

قلت: «بل هنا إلى جانبك. أريد أن تمسح على شعري.. لم يمسح على شعري هكذا سواك». قال في حزم من ينطق بنبؤة تمت: «تخسرينني».

قلت والحسرة تغالب الخوف وقد تم القضاء ولم يعد هناك ما

يغيره: «أنت يد العدل وعين الحقيقة.. لا أخسرك».

فابتسم في خيلاء وفتح النافذة. بعدها رأيت الطريق ينعطف تحت قدمي فإذا الشمس والقمر في كبد سماء زرقاء والحقول على الجانبين وأنا أنظر من حضن الجبل.

❖

البئر

في الصحراء لاتمطر السماء. ولكن قرب الفجر كل يوم تتجمع حبات الندى عند أطراف النباتات المنشورة هنا وهناك. تتلقفها يدا امرأةٍ عجوز معروقة قلقة كل فجر وكأنها فرصتها الأخيرة.

عندما يمتلئ بحبات الندى الكوز الصفيح تجري تفرغه في البئر. صنعتها يداها. حفرتها وأدارت فتحتها وعمقتها وأقسمت أن تملأها حتى تفيض. ولكن هنا في هذه الصحراء لا تمنّ الأرض بماء وإن اخترقت حتى الجوف السحيق. يوم اكتشفت ذلك أقسمت وكانت شابة جميلة وقتها أن تملأ البئر لو كلفها ذلك عمرها.

فراحت عند فجر كل يوم تجمع حبات الندى في الكوز الصفيح وعندما يمتلىء الكوز بعض الشيء تجري تفرغه في البئر وتنتظر صباح يوم جديد.

ما كان يؤرقها إلاّ خاطر واحد يلح عليها أحيانا نهاراً بأكمله : «ماذا لو أنها ماتت قبل أن تملأ البئر؟» أحياناً كانت تستولي عليها الفكرة فلا تطيق انتظار الفجر فتقضي ليلها في محاولات يائسة لجمع الندى قبل أن يتجمع. وأحياناً كانت تستسلم لخاطر يهدّ من عزيمتها ويوهنها: إن كل جهدها لن يغير شيئا، وإن أحداً لن يلحظة وإنها بعد أن تموت لن يتذكر بئرها أحد ولن يروي بئرها أحد.

ظلت على حالها سنين طويلة لاتعلم عددها، إلى أن كان يوم ذهبت تفرغ الكوز الصفيح في جوف بئرها وذهلت. كان الماء قد

ارتفع.. حتي أنها رأت صورتها تتراقص أمامها على صفحة المياه، وأفزعها مارأت. وجه عجوز حفر عليه قانون الحياة والموت طلاسم التحول. حياة جف رحيقها وذبلت، لم يبق لها إلاّ لحظة ينفخ فيها فتنهد وتتبعثر وتذوب وسط ذرات رمال الصحراء. وشمل كيانها جنون يندفع في موجات يخبط صفحة الماء بالكوز الصفيح ويفرغ ماءه على الرمال حول البئر. ولكن الماء لاينحسر ولاتبتل حبات الرمال.

❖

القاتلة

أمسكت كريمة الأحجار وأمعنت النظر. أزرق داكن شفاف وأبيض ملتهب. نجوم السماء تشابكت في حلقة ليلة صيف دون قمر، تلعب لعبة طفولية بلا تحد، بلا ذنب، ولكن بشيء من الترقب والخوف اللذيذ في ظلال شعور أشمل بالأمان: إنّ في النهاية، من بيده مثل هذه الأمور هو في قرارة نفسه، وعن حصيلة تجاربه، وبإجماع من لهم نفس مكانته في التدبير والحل مسرور، موافق، رغم تقطيبة عدم الرضا؛ تلوح من وراء لمعة عينيه ابتسامة مؤازرة من يعلم شغف العصيان، فيما يعلم، كل من يعلم، أنه لا يهم.

ابتسمت كريمة ابتسامة رضا برئ براءة من لايمتلك الفعل في أي شيء.. ووضعت خاتم الزفير المرصع بالماس حول إصبعها ورفعت يدها نحو المصباح. نفذ شعاع في قلب الحجر. بسرعة البرق لاح لها حلمها القديم.. في بللورة ت. س. اليوت. رأت مدام سيزوستريس قارئة الطالع الشهيرة ممسكة بالحلق المكمل لطاقم الزفير تقول في لكنة مصطنعة:

– انظري عيني حبيبك. هذا ما فعلتْ مياه البحر بعيني حبيبك. كانتا يوما خضراوين. تذكرين؟ وهوى قلبها. كيف للمرء أن يتذكر المستقبل؟ إلاَّ إذا... وراق لها خاطر مخيف: إلاَّ إذا كان المستقبل يصنع في الخيال!

لم يكن لها حبيب، ولكنه في خيالها كانت له عينان خضراوان. لم يكن يرتاد البحر ولكنه في خيالها كان اسمه يونس. كان عقلها يؤجِّل وجوده ولكنه في خيالها كان قد مات وترك لها خاتم زفير مرصع بالماس.

منطق الأشياء

لمّا سألتُ قال: «هناك. عند العين الصخرية». لم أصدقه. العيون لاتكون صخرية. العيون دامعة. واتبعت طريقاً آخر، أبعد وأطول مما اقترح. ولم أعبأ بمن ينتظروني. وكانوا عطشى. ولم أسمع النصيحة:

– إذا فاضتْ عينُك. الماء هناك فقط إذا فاضت عينك.

لو أنه قال «عند الصخرة». لو أنه قال «تشير إليها صخرة». لو أنّه حتى قال «صلّي أو ادعي». كنت صدقته. لو كنتِ صدقته كانوا ارتووا: العطشى. لكنه قال شيئاً مستحيلاً. عيون الارتواء دامعة وانا عينى جفت في سبيل الموتي.

ومضيت ونسيت من ينتظروني. في الطريق خسرتُ متاعي لدليلٍ راهنني على النجم المشتري ومضى. ولم يبق لي إلا قليلٍ من الماء وعندي وحيرتي، ولم يعد لي أملٍ إلاّ في اتجاه النصيحة الأولى. ووجدتها عين صخرية بالفعل. عين قدت من حجر وسط الصحراء، ذلك اللامكان الفريد. ظهرت له فجأة معالم محددة.

حجر كبير ينسحب عند طرفيه. تمثالٌ رهيب يحوطه الفراغ، ويؤكد الفراغ. حجر له بؤبؤ وإنسان وأجفان. عين حورس وقد اقتلعت من كل أماكنها المعتادة. من كل سياقاتها السابقة في الذاكرة.

وجلستُ أسندُ ظهرى فلسعني الحجر. ونظرتُ لهوله فلم أر له ظلا. ومنطق الاشياء يرهقني لم يزل.

لابدّ أنه قَصَدَ «بالقرب» من تمثال على هيئة عين. لابد أنه

عنّي أن العين تشير إلى مكان الماء. واستدرت بجسدي أواجه العين.
عين لاترنو ولا تشير. عين وحيدة في الصحراء. لا يمكن أن توجد
عين في مثل مكان كهذا ولايكون لها معنى. وقمت أخطُّ أشعه
شمسٍ على الرمال في سبع جهات ومنطق الأشياء يرهقني.
ومنطق الاشياء يحيلني إلى ذاكرة تحيلني إلى ذاكرة، المياه وزادي
يتناقصان والعطش والجوع يلعبان برأسي والعين تغمض جفنها في
بطء وتتدحرج دمعة كبيرة تستقر ومضة على وجه الرمال تشرب
لمعانها المسام الكبيرة. وعيني لا تفيض.

❖

مرآة العدل

أُدْخُلُ من الباب القديم. خشب ونحاس في انسجام بديع، وكأن النحاس انشق عن الخشب كما ينشق الياسمين عن الحطب في فبراير، لكأن ياسميناً انصهر وصار نحاساً. الغرفة مظلمة إلاّ من سيوف ضوء رفيعة تتقاطع جزئياتها حول سرير عتيق تؤطّر حدوده على الأرض ولا تخترقه.

في السرير رجلٌ نائم، حوله ناموسية ثقيلة وعلى وجهه منشفة بيضاء نقية. قدماه نظيفتان تطلان من تحت كوفرتة جديدة الملمس.

أُشيحُ بالناموسية البيضاء في صمت يطنّ في أذني. ثم ألمس طرفَ المنشفة وأقشرها ببطء فأرى وجههَ رويداً حتى يكتمل فجأة. يرفع يده ويقَبض على يدي بقوة. وإذا بالناموسية تذوب كثافتها في تموجات طينية بطيئة لتستوي جدران قبر تحت ناظري.

– لماذا جئتِ؟ قال في صوت خفيض.

– قالوا إنك مريض.

– وأنتِ ملاك رحمة بإذن من الله؟

وأرهقني هزؤه لكني قلت:

– أردت تَعَلّم شيء من حكمة القدماء.

– القدماء من أمرضني ياهانم. تصدقين أياً كان. لكن أنت. كم أنت جميلة وساحرة. وربت على خدي وابتسم.

وضع يده تحت المخدة ونظرت فإذا السرير القديم يتآكل ثم

يتحول تراباً والملاءة تحته بها نقر وأوساخ وتظهر ديداناً تملأ الأرض بياضاً متسخاً وتصعد ببطء على الكوفرته التي تتحول شيئاً فشيئاً إلى رمادي مترب، وتملأ التجويف الضيق بين الجدران الطينية رائحة سكرية خفيفة.

وتُخرج يده من تحت المخدة المهترئة مرآة مشروخة ويدعوني للنظر فأرى وجهه سليماً، قوياً، نضراً تشوبه حمرة العافية، مبتسماً في انتصار وأرى وجهي عطناً متآكلاً على وشك أن ينسلّ عنه لحمه وشعري خيوط من الصوف الملّبد وعيناي بياضهما أصفر وسوادهما منطفئ. وينتشي منتصراً:

أردت حكمة القدماء؟ هاهي.

❖

القناع

صباح ذات يوم مطير هناك في ايرلندة وصلتني دعوة على لسان فتاة كانت تسكن بنفس المنزل اسمها مونيكا:

– غداً يقيم الرجال حفلاً تنكرياً وقد كلفوني بدعوة الفتيات. كانت هي حلقة الوصل لأن أخاها كان يقيم مع الرجال كما كنا نسميهم وكانت هي تقيم معنا نحن الفتيات كما كان الرجال يسموننا. كنا جميعاً «رجالاً وفتيات» طلاب بحث.

لا نحن نعيش حياة الطلاب العاديين الصاخبة المزدحمة ولا نحن نحيا حياة الأساتذة المنظمة الرتيبة ولكن شيء بين بين وبينهما الكثير من الوحدة. نقضي معظم أوقاتنا في المعامل أو المكتبات ولا نلتقي بأساتذتنا إلا بمواعيد سابقة، على الأقل إذا كانت أبحاثنا في مجال العلوم الإنسانية، وكان أكثرنا كذلك.

كنا أربع عشرة فتاة من جنسيات مختلفة وكان الرجال أكثر عدداً، معظمهم من الإنجليز أو الايرلنديين الشماليين. وكان بيتنا –نحن الطالبات– على بعد خطوات قليلة من بيت الرجال ولكنا لم نكن نتبادل إلا حديث الطقس فالكل مشغول أو كأنه مشغول.

وكان كل منا يطلق على محل إقامة الآخر: المنزل الآخر.

ولم يحدث من قبل أن أقام أحد منا حفلاً، يومئذ ساد منزلنا تيار من التوقع المشوب بإثارة مكتومة تخفيها كل واحدة منا عن الأخريات، متظاهرات بعدم المبالاة وكأنا ندعى لحفل كل يوم. ولكنه كان من الواضح أننا جميعنا ذاهبات.

ووقفت أنا أمام المرآة. ساعة بأكملها أحكم «التنكر» فرسمت

نصف وجهي بالمساحيق، وفي النهاية كان لي حاجب أسود طويل يتذيل إلى أعلى عند المنتهى في شكل شرس متحد.

وكان لي نصف فم ممتلىء بلون حبات الكرز القانية وكانت عيني اليمنى تلمع من تحت ظلال الكحل الثقيلة وخدي الأيمن يلتهب بحمرة اصطناعية في شكل مثلث طويل يبدأ من تحت العين مباشرة ويلمس حافة الأنف اليمنى ثم ينزلق إلى فكي في نهاية مدببة. فرقت شعري في الوسط تماماً ونكشت الجزء الأيمن في تموجات مجنونة عنيفة وثبته.

وبدا النصف المرسوم من وجهي أقرب إلى وجه الغجرية في أوبرا كارمن. أما الجزء الأيسر فطمست معالمه تماماً بفعل كريم الزنك الأبيض فوقه طبقة ثقيلة من بودرة الأطفال. وشددت نصف شعري الأملس إلى الوراء وثبته بالبنسات. ولبست ملابس تمرينات الباليه السوداء اللاصقة والحذاء الطري ذا النعل الرقيق ووثبت فوق السلم الخشبي العتيق مغادرة منزلي إلى المنزل الآخر.

عندما دخلت قاعة الطعام التي كان بها الحفل، نظر إلى نفر من الجمع في دهشة غير مبالية واستداروا نحو البوفية يملأون أطباقهم في غير نهم.

وقفت في ركن أحتسي شرابي في بطء وأدخن في صمت وقد شملني شعور تام بالغربة. ووددت لو لم أحضر. في ذات اللحظة باغتني شاب قصير ربع ذو ملامح قوية له عينان بلا شك عربيتان لهما أهداب طوال ينغلق جفناهما وينفتحان في بطء..

بهما حنين حزين، وبؤبؤان في لون عسل النحل

قال في دفء وتفهم ينم عن أعماق مرهفة واهتمام حقيقي:

- كنت أراقبك حتى بدا لي أنك على وشك الذهاب.. لا ترقصين ولا تحتسين الخمر ولكنك تدخنين وتنتظرين. جزء من وجهك مليء بحيوية شريرة مكتفية بذاتها عن الآخرين، والآخر كالجبس يصنعون منه تمثالاً لوجه ميت.. أنا كما ترين روبين هود.. صعلوك في مفاهيم الأدب عندنا في العراق... أسرق الأغنياء لأعطي الفقراء. ولكن أنت من تكونين؟

ونظر إليّ في إمعان كمن يريد استكشاف أعمق أعماقي وكأن حياته ذاتها رهينة هذا الاكتشاف. كان يتحدث الإنجليزية طوال الوقت. رددت عليه بنفس اللغة:

- أنت عربي؟

قال: نعم. وأنت من أين؟

قلت: أنا من هنا. من البيت الآخر.

قال: أنلتقي غدا؟

قلت: نلتقي. أين نلتقي؟

واتفقنا على مكان على مقربة من الجامعة يدعى «غرفة المعيشة».

عندما دخلت الغرفة، كما كنا نطلق على المكان، وجدته يحتل طاولة لاثنين في أخر القاعة وكان المطعم هادئاً إلى حد كبير على غير العادة وقت الغداء. وكانت أمامه زجاجة نبيذ إيطالي وكان يطالع صحيفة ايرلنده الأولى «الايريش اندبندنت» وبادرته مازحة بالعربية وأنا أشعر بفخر خفي:

– السلام عليكم وعلى من اتبع الهدى. ورفع عينيه العسليتين ونظر إلى نظرة قتيلة، مطعونه في أمانها مغدور بثقتها. ودون أن يرد التحية قال:

– لماذا لم تقولي أنك عربية البارحة؟

– أنت لم تسألني.

– بل سألتك وقلت إنك من هنا.

– وهل ملامحي تدل على أني من هنا صحيح؟

– ولكن شكلك البارحة كان شيئاً آخر لايدل...

– مع أنك وصفتني وصفاً دقيقاً...

قلت أتشبث بذكرى الفضول العطوف الذي شملني به في الحفل التنكري:

– أكنت تفضل لو جئتك كما الأمس؟

قال في عصبية واضحة: بالطبع لا.. ولكن يا أختي...

«يا أختي» قالها في نبرة المؤنب –كمن يشهد عزيزاً عليه في

موقف مخجل وشعرت بالحرج الشديد وكأني كنت أتودد لأخي وقد ظننته رجلاً غريبا.

كان هو قد انشغل عني بقائمة الطعام وعندما أفاق من ورائها قال في صوت أبوي وهو يشير للنادل بحزم ألا يصب لي نبيذاً وكان الآخر قد هم بذلك:

- هل قررت ماذا تأكلين ؟

قلت: آكل أي شيء إلا لحم الخنزير.

وبدا لي صوتي ضعيفاً باهتاً وقد فقد ما يميزه من نبرات وداخلني شعور خفي بالندم وتقلصت داخلي الفرحة الطفولية التي كنت قد دخلت بها المطعم وحل محلها شلل تام في التفكير فرحت أبتسم له في بلاهة وهو يزيح عنه كأس النبيذ الفارغة.

❖

الأشياء

يا آمنة. يامن أنت رمز من يصونون الأشياء. علميني. كيف تُصان الأشياء؟

لما اغمضتُ عيني رأيتها على سجادة الصلاة والطرحة تفوح منها رائحة كولونيا خفيفة وعلى يديها البلورية يظهر الوشم القديم المتلاشي عند الرسغ ؛ تدعوني، وعندما اقترب تنظر لي نظرة مدققة طويلة وتسأل:

– مالك؟

عيناها زرقاوان مستديرتان، نافذتان على أحوالي. ورددت السؤال. فابتسمت وربتت على كتفي وفتحت ذراعيها فضمني صدرها الكبير يعلو ويهبط في طمأنينة تمسح على شعري وتتمتم دعاء ختم الصلاة.

– لمن تريدين صيانة الأشياء؟

وشعرت الشَرَك في سؤالها وفكرت في قول شيء يعجبها لكني قلت الحقيقة:

– لي. أصونها لي.

وتنهدت وقامت تجلس على كرسي قديم بجانب النافذة ووضعت راحتيها على مفرشي المسند ومسحت على البرودري الإنجليزي الأبيض في رفق وعلت صوتها الهادئ نبرة آمرة خفيفة، كمن نفذ صبره أخيراً، كمن أسقط في يده بعد أن حاول كل جهده:

– على أي حال.

ثم راحت تعدد: الكريستال لايجفف بعد الغسل مباشرة ولكن قبل أن يجف وحده بقليل، بعدها يلمع بفوطة من جلد الغزال في خفة، وإن كان يستعمل في الشراب ففوطة بلا وبر. الفضية تغسل في سائل «الجودار» مرة في الشهر حتى مالم يستعمل منها وتعد قطعة قطعة قبل أن تدخل مكانها في دولاب السفرة. الخشب يدهن بالورنيش يوم بعد يوم لتتشرب مسامه ثم يلمع بفوطة صفراء نظيفة. الماركيزت يغسل كل ثلاثة أسابيع بالماء ورغوة الصابون ويكوى بمكواة دافئة. أما الأوراق....

وقاطعتها: أنا لا أقصد تلك الأشياء. قالت وكأنها غضبت فجأة:

– تلك هي الأشياء.. غير ذلك ليس بأشياء.

❖

المعدية

بين الشط والشط يقضي مراكبي المعدية يومه، الثمن هو الثمن دائماً: عشرة قروش فضية. تزيد أحياناً عشرة قروش أيضاً. يجود بها من لا يعرف الثمن الأصلي، ولكن المراكبي لايطلب ولا ينتظر حتى العشرة قروش. عندما يقبضها بين أصابع كفه العريض تستدير يده سمراء غير معروقة، خشنة بعض الشيء كيد أمٍّ فقيرة لاتكل عن رعاية أطفال كثيرين. عندما يضع القروش فيَ جيب سرواله تحدث أصواتاً، غالباً ما يبدأ عندئذ في الغناء: موالٍ حزين عن الأمل وخيبة الأمل، ولكن كلماته أبداً تختلف في كل مرة.

كثيراً ما كان البعض يهوى الانتقال للشاطىء الآخر ليسعد بصحبة المراكبي. فقد كان غناؤه يتم على نحو عجيب. حتى عندما ينقل أكثر من شخص -ولم يكن ينقل أكثر من ثلاثة في المرة الواحدة- يشعر كل واحد على حدة أن الموال موجَّهٌ له دون الآخرين. وكان يشعر بالسعادة عندما يرى وجهاً عابساً ارتسمت عليه علامات الحبور والثقة، وكان لايدخر وسعاً كي يشعر سامعه أنه بالفعل لايغني إلا لأذنه هو بالذات، وأن مبتغاه هو بعث الأمل في نفس سامعه، هذا بالذات، وأن الأمل هو مبرر وجوده والنقطة التي يرتكز عليها كيانه.

رجال ونساء من جميع الأعمار ينقلهم المراكبي بين شطي مدينة الموتى ومدينة الأحياء ودائماً يتركهم أكثر حبوراً وإيماناً فقد اختصهم المراكبي وبارك إنسانيتهم. كان غناؤه مريحاً شجياً يتقبل معه السامع كيان حالِه المنقوص، فيفيض لحظةً بجمال الحسرة ورقة

الفهم، ويتقبل نفسهُ والآخرين هكذا كما هو وكما هم وتستكين النفوس، فها هو رجل فهم ووعى وتقبل كل شيء فراح يواسي ويعزي وكأنه بالفعل عاش كل الحيوات وذاق طعم كل العذابات وأصبح لديه فائض عظيم من الحنين العطوف.

عندما يشكره أحدهم على صحبته كان يضحك ويقول مجاملة: «ألسنا كلنا في نفس المعدية؟» ولكنَّ ظلاً خفياً وراء لمعان عينيه ينسدل بعد أن يبتعد الراكب قليلاً وتغلف قلبه غلالة حسرةٍ سوداء....

وكان الكل يدهش فهذا الرجل يأخذ عشرة قروش ويطعم الراكب طعاماً يكلفه أضعافها. كان هذا حاله مع من لايعرفهم عن قرب أما الأقربين فكانوا يعلمون عنه مالا يعلمه الآخرون، ولكنهم لايبوحون بالسر. الأقربون فئة من نوع خاص، فئة تأكد له أنهم يظنون أنفسهم من عجينة أخرى غير باقي البشر. فئة لاتكذب ولاتظهر مالا تبطن. لا تتهاون فيما تعتقد ولا تتنازل عنه، فئة تظن نفسها متكاملة ولكنها لا تأنس لمن حولها وتخاف على نفسها أن تصبح كالآخرين.

وكان المراكبي لايرد أحداً. حتى وهو مرهق، حتى في الأوقات التي كان يبدو فيها مريضاً كان سريعاً ما يلتقط أحوالهم، فإذا وضع العشرة قروش في جيبه بدأ بغناء موال ينبىء بحال المستمع فيأنس لهذا الإرهاف، ويشعر بكمال لحظة يتحقق فيها التواصل بين البشر دونما كلام.

يوم جاءته «خواطر» بنت تاجر الماعز، ما إن وضعت في يده

القروش العشرة حتى نظر إليها نظرة طويلة مليئة بحزن عميق أطلق بعدها صوته العذب يغني في عتاب،

«ياميت ندامه ع اللي كان الجمال في إيده ولا صانهوش.

يعرف منين الجمال اللي يعرف ما يصونهوش»

كانت «خواطر» يوماً ما جميلة، تركها ابن عمها ليتزوج من غجرية الموالد.

ينقل «خواطر» في الأسبوع مرة، تذهب لتزور قبر أمها وترجع مغرورقة العينين وعقلها شارد وروحها مستلة، متشحة بسواد ثقيل. وكان الجميع يحترم حزنها فلا يحدثونها إلا حديث الموت، أما المراكبي فكان لا يلتفت إلى وجودها إلا بقدر، مع أنها كانت امرأة من نوع خاص. ذات ملامح قوية، وجسم ممشوق تلفه هالة من الكبرياء قليلاً ما يتسق وكل هذا الحزن. إذا ركبت مع آخرين لاتحدث أحدا، تهرب من عينيها نظرة ازدراء لا تسلطها على شيء بالتحديد، فيشعر الموجودون بالارتباك. وكان المراكبي تشغله «خواطر» إلى حدّ بعيد، ولكنه ظل على حياد تام إلى أن جاء يوم ركبت معه وحدها، فأطال من الشط إلى الشط، وانتظرها حتى فرغت من زيارة قبر أمها ثم أطال العودة وبدأ في الغناء. وما إن سمعت «خواطر» الصوت ووعت أن كلامه موجه لها حتى ارتخت ولانت وفقدت غضبها وزالت عنها نظرة الاحتقار. لقد أعطاها المراكبي من روحه حتى الثمالة.. ثمالتها هي، إلا أنه عندما رأى شرارة الغضب تنطفىء في تلك العيون، أزعجه ذلك كثيراً،

وتمنى بينه وبين نفسه لو أنها قاومته، لو أنها لم تصدقه، لو أنها لم تسلمه إرادتها هكذا.

بعدها جفت معاملته لها واخشوشنت ألفاظه. اصبحت معاملته عادية بلا اختصاص. عندئذ كان يسمع يقول: يا خسارة، وكأنه ينعي لنفسه انتحار عزيز. إلا أنه أبداً لم يفقد الأمل في أن يجيء إليه من يستطيع الأخذ كما يستطيع العطاء.

سنوات طويلة أمضاها فوق المعدية يبث أملاً يتلاشى في العثور على من يقف أمامه موقف المساواة: وجاء ليل كان وحده في المعدية عندما هبت عاصفة لم ير مثلها من قبل، غلبت الرياح خبرة السنين وانقلب المركب. لم يكن شط مدينة الموتى بعيداً، فاستجمع كل قواه وركز عزيمته في ذراعيه لتنقلاه إلى شاطىء النجاة. عندما وصل منهك القوى راح ينظر وجهه على صفحة النهر الذي صفا فجأة كما غضب فجأة، وفهم سر شقائه، ولكنه لم يفهم سر الأمل الذي عاش له وبه قبل أن تتحطم المعدية.

❖

نهار اللَّيلك

نهار الدنمرك الطويل، ليلة سانت هانز في ماقبل الغروب الممتد بين ظلال الغرفة المطلة على الحديقة، جلس بين أخشاب التيك الخافتة يشعل شموعاً ليلكية على السطح المبلط المحيط بالمدفأة. أربعون شمعة. ودخلت «ليللي» من الحديقة تحتضن ورود حوض زنابق الهياسنث البنفسيجيةَ وشهقت شهقة مختلسة لجمال الشموع الذي ملأ الغرفة أشباحاً وارتعش صوتها وهي تدعوه:

– «هانز –أولَه» ؟

فرد السلويت الراكع من جانب الشموع:

– هيا، لدينا أقل من الساعة.

تركت «ليللي» الورود على إفريز النافذة الداخلي بجانب قازة من الكرستال المشطوف. واتجها سوياً نحو الردهة الواسعة إلى الباب الأمامي ووقع حذائيهما على الباركيه يؤكد السكون.

أغلقا الباب المصقول الثقيل الناعم وراءهما ومضيا نحو السيارة. عندما وصلا الشاطئ كانت الركايا على وشك الاشتعال. تمتد إليها المشاعل ولا تلمسها والعيون على قرص الشمس تراقب آخر ذراته تذوب في بحر الشمال وعندما تختفي، تطقطق الأخشاب الهرمية وتشتعل وترتفع أصوات جميلة ترسم أغنية شمالية حزينة.

كانت «ليللي» تبكي دموعاً مالحة خفية لم يرها زوجها وكان يقاوم غصة مثَلة في حلقه لكنه يحتضن يد زوجته في حنو تقليدي وهو ينظر إلى الأفق كمن جاء يودع سفن الأجداد

الراحلين، ويخاف الرجوع لمنزل موحش وحيد.

عندما انتهت الأغنية وضع هانز –أوله يده على كتف زوجته وعادا أدراجهما إلى السيارة.

في أقل من نصف الساعة كانا داخل البيت الذي باعاه قبل أسبوع. نظرت «ليللي» حولها كأنها تزور عمرها وقد ولّى وفاجأتها الشموع ثانية.

ورأت «هانز –أُولَه» يضع إصبعه على شمعة منها فيكتم ضوءها ثم يرفع إصبعه عنها ببطء شديد وكأنه يتأكد، وكأنه خائف أن تشتغل مرة أخرى.

ذهبت إلى النافذة وراحت ترتب الورود وعندما انتهت أخذتها إلى بوفيه غرفة الطعام الصغير ووضعتها في حرص في منتصف المفرش التيل الأيرلندي الوردي الباهت وصعدت إلى الدور الثاني.

كان «هانز –أوله» يستمع إلى مقطوعة شوبرت، الفتاة والموت، وكان كتاب «ليللي» مفتوحاً على الصفحة الثانية ومقلوباً على وجهه يعكس غلافه اللامع ضوء أباجورة القراءة فيوحي بعدم جدية الموضوع. لما انتهت الحركة الأولى من الموسيقى سألته «ليللي» لو كان يريد أن يأكل شيئاً خفيفاً قبل أن ينام، فقال إنه يشعر بضيق ناحية صدره وارتباك في أمعائه وربما كان من الأفضل ألا يأكل قبل النوم مباشرة.

بعدها وصلني خطاب «ليللي» الرقيق تنبئني أن «هانز –أوله» توفي عن نوبة قلبية حادة، مرفق به دعوة لحضور الجنازة.

ومرت سنة وحل أطول يوم، وذهبت أصحبها إلى الشاطئ نشهد إشعال الركايا عند وداع الشمس، مررنا على بيتهم القديم ولم تلتفت ووصلنا وتركنا السيارة في مكان قريب من السلالم المؤدية إلى الشاطئ وأصبحنا على الرمال، ولما ذابت الشمس تماماً اشتعلت النار في الأحطاب وعلت أصوات مجموعة كبيرة كانت على مقربة منا. والتفت إلى المغنين ورأيت «هانز -أوله» يتوسط شبان وشابات يشبهونه كثيراً، يضعون أكفهم على أكتاف أولاد وبنات صغار، ينظر إلى الأفق يغني الترنيمة الحزينه وراء سفينة الأجداد وقد لوحت الشمس وجهه بسمرة قوية، زادت من زرقة عينيه الحادتين، وكان يلبس بليزر كحلي وقيمصاً لبني وبنطلوناً رمادياً فاتحاً وحول رقبته إيشارب به نقوش كشميرية كحلية ونبيذية غامقة وشعره الفضي الناعم تتطاير خصله الأماميه قليلاً فيرفع يده اليسرى ويمر بأصابعه خلالها يعيدها مكانها وكان يبتسم لليللي.. لكنها لاتراه.

❖

چانین

جاء صوتها كالأفعى تلعق بقايا السم الذي نفثته في اللحظة المدبرة متغاضباً: «لازم تاخدي الإبرة في الميعاد». جاء ناعماً وهي تطهر بالقطن المبلل بالكحول آثار وخز الإبرة. مشفقةً في حركة قاسية خففت من حدتها بأن لمست الشعر الطويل الناعم مسترسلاً في استسلام وراء الرأس المنكس. أخيراً قالت: «هذا قدرك يا چانين».

وردت چانين في خشوع: نعم الآن أعرف. إن الرحلات للبنات مميتة. نعم أعرف. أنت أيضاً تعرفين؟!

ثم مدت يدها نحو كُراس كانت تشخص فيه طوال الوقت وتناولت قلماً كان مفتوحاً في داخل الصفحة الوسطى وأخذت ترسم خريطة. خريطة مصر. والممرضة المعطرة بالكحول تنظر في اهتمام كبير ثم تنهض، تجيء بالطبيب، فمن المؤكد أن ما قالته چانين وما فعلته يدل على أن الفتاة استجمعت إرادة ما، إلاَّ أنها ظلت في مكانها تنظر وچانين ترسم.

رسمت چانين مربعاً كبيراً أسمته القاهرة. قاهرة كبيرة جداً بالنسبة لبقية الصفحة، وراحت تحدد المعالم داخل المربع: سور بابليون وجامع عمرو ومقياس النيل ومئذنة الغوري والقلعة ومدينة الموتى وساحة ابن طولون وبيت الكريتليه وبركة الفيل وجامع السيدة زينب، ثم أخذت ورقة أخرى وزادت النمنمات، عندئذ تركتها الممرضة وراحت تبحث عن الطبيب فوجدته عند باب الغرفة، وبادرته:

– كل ما توقعت حدث، أخذت الورقة والقلم ولكنها لم

تكتب، إنها ترسم في نمنمات صغيرة دقيقة معالم القاهرة!

ولم يعلّق، ولكنه ذهب إلى حيث چانين وكانت قد توقفت عن الرسم وسألها إن كان باستطاعته أن يرى ما رسمت ولكن چانين تمسكت بالأوراق في تشبث مجنون ثم أخفتها بسرعة في جيب قميصها وقالت في اندهاش كبير: -كيف تجرؤ؟

فتأسف لها في أدب ومضى. راح يطلب أباها ليسمح له بأول زيارة:

- چانين تحسنت كثيراً يا زاهر... إنها اليوم ترسم وأنبتنى في غير لطف لأني تجرأت وطلبت منها أن أرى ما ترسم، سأل زاهر في ذهول:

- ماذا، ترسم؟ عمرها ما رسمت!

- ترسم معالم القاهرة وبدقة شديدة وكأنها ترى تفاصيل حجارتها رؤيتها لسن القلم.

وجاء زاهر على عجل- قطع القاهرة من مصر الجديدة إلى حلوان فيما خيل إليه أنه نصف الساعة. دخل غرفة ابنته فرآها نائمة تحتضن أوراقاً بين صدرها وقميصها. فمال على جبينها يقبله ومضى يبحث عن طبيب ابنته المعالج ولكن الآخر كان قد ترك المستشفى للبيت.

عاد أدراجه لايدري إن كان يجب عليه الانتظار حتى تفيق چانين أو حتي يعود الطبيب. في النهاية ركب سيارته وذهب.

عندما أفاقت چانين طلبت أوراقاً جديدة. وراحت الممرضة تخبر الطبيب في صوت ينم عن فخر خفي وكانت تعلم أن رسم چانين يسعده، سألت:

– ولكن ماذا يعني هذا يادكتور؟

قال في تردد: ربما يعني أن الوجود أصبح له مكان ما.

في صباح اليوم التالي لزيارة أبيها الخفية كانت چانين قد أتت على رزمة كاملة وطلبت قلماً آخر. قبل موعد الغذاء كان قد اكتمل لها تل صغير من الأوراق الفلوسكاب. أمسكت القلم الجاف الجديد في يد ووقفت فوق تل الأوراق بقدميها الحافيتين وراحت تشخص من النافذة وقد انسدل على لمعة عينيها ستار اللاوعي يعكس خضرة الأشجار وراء النافذة. وعادت لا تسمع ولا تتكلم.

طمأن الطبيب الممرضة بأن تنبأ لها من خبرته أن چانين سوف تتعب وتنهار عضلاتها وعندئذ ينقلونها إلى سريرها.

فى المساء كانت چانين على وقفتها وصباح اليوم التالي والصباح الذي تلاه.

جاء أبوها والطبيب في كعبه يحاول إفهامه تطور الحالة وفتحا باب الغرفة.. خيل إليهما أن العناكب قد غزلت حول الفتاة خيوطاً من السلوفان. بدا جسدها النحيل من خلالها وكأنه طيف هش واقترب أبوها يلتقط ورقة صغيرة من التل تحت أقدام چانين وقرأ: «ياغبية، هذه هي حدودك الوجودية لا تتعدي».

خشب ونحاس

رأيتهم على الطريق. اصطفوا واحداً واحداً يودعونني وكانوا جميعاً من الرجال. كانت أمي تقول وصوتها يتكسر تحت وطأة الفضيحة: «تحبين الرجال». فتعلمت العيب والخطيئة وفضضت بكارة وجودي وصرت داعرةً نرجسية لا يقربني أحد ولا أعطي أحداً من ماء روحي التي انسلت مع آخر قطرة رمق، حتى أرضيها.

الداعرات للدير. فدخلت الدير، وكان جميلاً جداً، له بهو عظيم يجتمع فيه نساء ورجال من كل لون وملة مرة في الشهر، يغنون في نظام بديع، كان منظرهم يبث فيَّ الأمل، أن استعيد شيئاً فقدته على يد أول المودّعين: عقلي. من كثرة ما استغباني وأنا لا أصدقه، ولا أصدق نفسي كذلك- لكن لأنه هو أيضاً كان يحضر إلى دير الصادقين أحياناً -شككت في عيني وبقيت.

الشكوك لا محل لها في الدير. فطُردت طردةً جميلةً مهذبةً أظنني يومها لم أكذب لكني نمقت الكلام وكان ذلك عفو الخاطر وخرجت كأني لم أدخل. الآن بلا عقل ولا روح. ولما كتبني أوسكار وايلد في حدوتة للأطفال طويلة ومملةً عن آخر باع نفسه للشيطان حتى قتل رجلاً كان لايضمر له الشر، زايدت عليه وقتلت الناس جميعاً.

القاتل للسجن، ودخلت السجن لكن قلبي كان لم يزل يتنفس أملاً ضعيفاً يرن صداه مكان تجاويف العقل والروح. رحت أتخبط بين جدران الظلام أتلمس طاقة للهرب. وجدتها ولعنة السجان ورائي كأني عبء لايحتمل ووجدت مكاناً بين من ظننتهم أمثالي بلا عقل ولا روح لكني ظللت بينهم وحيده منبوذة

ولم أفهم إلا عندما ماتت واحدة وسمعت الباقين يتضاحكون: أرأيتم، لقد كان قلبها ينبض. هذا ما أماتها.

وخفت خوفاً أفزعني حتى أني ذهبت للطبيب بنفسي وكنت لا أصدق الأطباء. قل! ماذا يعني أن ينبض القلب؟ فقال: قد يعني الموت وقد يعني الحياة. الخيار لك. فرحت أتدرب في ميكانيكية على التمييز بين الأشياء وأهلي يتابعون في شفقة وكأنهم يرون عجوزاً تحبو إلى قبرها. لكني استعدت عقلي رغم الشفقة. ولما لمح ومضة الالتماع الواعي تحل محل الانطفاء الغبي قبلني قبلة وداع طويلة وانتفضت روحي تعيد المياه لأنهار الجسد.

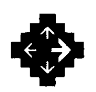
وعدت أنظر إلى المرآة أقرأ الزمن: بعد الثانية عشرة. وجَلْتُ قليلا فاهتممت قليلاً وواصلت السهر ثم غلبني النعاس ولم اكترث. لكنه كان نوماً تؤرقه الأحلام؛ حتى البارحة. وصلتني بطاقة دعوة من خشب ونحاس عليها نقش صغير منمق، متعال، مستغن يقول:

لو أردت تعودين شابةً جميلةً، فقط إحملى كل متاع الذاكرة ولاتنسي شيئاً.

❖

المحتويات

❖



إصدارات شرقيات

دار لنشر الأعمال الإبداعية المتميزة
في إخراج طباعي متميز

روايات

اللجنة/ صنع الله إبراهيم
وكالة عطية/ خيري شلبي
رائحة البرتقال/ محمود الورداني
وردية ليل (الكتاب الأول)/ إبراهيم أصلان
حجارة بوبيللو/ إدوار الخراط
زمردة أيوب/ بدر الديب
صخب البحيرة/ محمد البساطي
متون الأهرام/ جمال الغيطاني
العاشق والمعشوق/ خيري عبد الجواد
وردية ليل (الكتاب الثاني)/ إبراهيم أصلان

★ قيد النشر



قصص



شعر

فاصلة إيقاعات النمل/ محمد عفيفي مطر
مطر خفيف في الخارج/ إبراهيم داوود
فقه اللذة/ حلمي سالم
لا نيل إلا النيل/ حسن طلب

❖❖❖

عيون الأدب الأجنبي

عبدة الصفر / ألان نادو
مدام بوفاري / جوستاف فلوبير
المكان / أني إرنو
الكلمات / چان پول سارتر
الأحمر والأسود / ستندال
الآثار الشعرية الكاملة / إديت سودرجران
چاز / توني موريسون
قتل للذكرى / ديديه دينانكس★
ديرپارم / ستندال★
الأسير العاشق / چان چينيه★
الضفة الأخرى / چوليان جراك★
ويليام بتلربيتس: مختارات من شعره★
أعمال رامبو الكاملة/ أرتور رامبو★
البحث عن الزمن المفقود: الجزء الأول / مارسيل پروست★
البحث عن الزمن المفقود: الجزء الثاني / مارسيل پروست★



دراسات

مسرح الشعب/ د. علي الراعي
من أوراق الرفض والقبول/ فاروق عبد القادر
البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث/ د. سيد البحراوي
الكتابة عبر النوعية/ إدوار الخراط
يوميات الحب والغضب/ فريدة النقاش
أفق الخطاب النقدي / د. صبري حافظ*
نقد بلا سلطة / د. غالي شكري*
الاقباط في وطن متغير / د. غالي شكري*



دراسات ثقافية أجنبية

مدخل إلى الأدب العجائبي/ تزفيتن تودوروف
الوضع ما بعد الحداثي/ چان - فرانسوا ليوتار
مجتمع الفرجة/ جي ديبور
تاريخ القرصنة البحرية/ ياتسيك ماخوفسكي
كبش الفداء/ رينيه چيرار*
مدخل إلى الشعر الشفاهي/ پول زمتور*
حدود حرية التعبير/ مارينا ستاج*



كتاب شرقيات للجميع



فنون



رقم الايداع ٧٢٣٥ / ٩٥
الترقيم الدولي I S B N 977- 5406 -68- 4